

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣ - سُورَةُ الرَّعْدِ

سميت به لما فيها من قوله عز وجل^(١) (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) الدال على الصفات السلبية والثبوتية ، مع الإخبار عن الأمور الملكوتية ، ومع كون الرعد جامعاً للتخويف والترجية ، وهذه من أعظم مقاصد القرآن - قاله المهايمى .

وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية ؛ ويقال : إنها مدنية إلا قوله^(٢) (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا . . .) الآية . ويقال : من أولها إلى آخر^(٣) (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا) مدنى وباقيها مكى . والله أعلم .

وآيها ثلاث وأربعون .



(١) [١٣ / الرعد / ١٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ٣١] . (٣) [١٣ / الرعد / ٣١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الْمَرَّ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

قال أبو السعود : « الْمَرَّ » اسم للسورة ، ومجمله : إما الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذه السورة مسماة بهذا الاسم ، وهو أظهر من الرفع على الابتداء ، إذ لم يسبق العلم بالتسمية . وقوله تعالى « تِلْكَ » على الوجه الأول ، مبتدأ مستقل ، وعلى الوجه الثانى ، مبتدأ ثانٍ ، أو بدل من الأول أشير به إليه إيذاناً بفخامته . وإما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو : اقرأ أو اذكر ، فهـ (تلك) مبتدأ كما إذا جعل (المر) مسروداً على نمط التعميد ، والخبر على التقادير ، قوله تعالى « آيَاتُ الْكِتَابِ » أى : الكتاب المجيب الكامل الغنى عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب ، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به . فهو عبارة عن جميع القرآن ، أو عن الجميع المنزل حينئذ . وقوله تعالى « وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » أى : من الكتاب المذكور بكامله « الْحَقُّ » أى : الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به ، الحقيق بأن يخص به الحقيقة لمرافقه فيها ، وقصور غيره عن مرتبة الكمال فيها . وفى التعبير عنه بالموصول ، وإسناد الإنزال إليه بصيغة المبنى للمفعول ، والتعرض لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره عليه السلام ، من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لشأن جلالة المنزل وتشريف المنزل إليه ، والإيحاء إلى وجه الخبر - ما لا يخفى . . ! انتهى ملخصاً بزيادة .

لطيفة :

في (الَّذِي أُنْزِلَ) وجهان : أحدهما هو في موضع رفع ، و (الْحَقُّ) خبره ، أو الخبر (مِنْ رَبِّكَ) و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، أو خبر بعد خبر . وثانيهما محله الجر بالمطف على (الْكِتَابِ) عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى . أو بتقدير زيادة الواو في الصفة ، و (الْحَقُّ) خبرٌ محذوف ، ومنع كثير من النحاة زيادة الواو في الصفات . وآخرون على جوازها لتأكيد اللصوق ، أي الجمع والاتصال . لأنها كما تجمع المطفوف بالمطفوف عليه ، كذلك تجمع الموصوف بالصفة ، وتفيد أن اتصافه به أمر ثابت . وقوله تعالى « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » أي : بذلك الحق لرفضهم التدبر فيه شقاقاً وعناداً . وهذا كقوله تعالى ^(١) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بقدرته رفع السموات ، أي خلقهن مرتفعات عن الأرض ارتفاعاً لا ينال ولا يدرك مداه ! وقوله تعالى « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » أي أساطين . جمع عماد أو عمود . وقوله تعالى « تَرَوْنَهَا » إما استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك ، كقول الشاعر : * أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني * أو صفة لـ (عَمَدٍ) حى بها إبهاماً ؛ لأن لها عمداً غير مرئية ، وإليه ذهب كثير من السلف ، ورجح ابن كثير

(١) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

الأول وأنها لا عمد لها ، قال : وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى^(١) (وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) والأكل أيضاً في القدرة ! وقوله تعالى « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » تقدم تفسيره في سورة الأعراف ، وأنه يُمرُّ كما جاء من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . وقوله تعالى « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » أى ذلّلها لما أراد منهما من نفع العالم السفلى . وقوله تعالى « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » أى لغاية معينة ينقطع دونها سيره ، وهو قيام الساعة ، كقوله تعالى^(٢) (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) وقد بين ذلك في قوله تعالى^(٣) (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَحَرَتْ)^(٤) والافتقار على الشمس والقمر ، لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرها . فتسخير غيرها يكون بطريق الأولى . وقد جاء التصريح بتسخيرها مع غيرها في قوله تعالى^(٥) (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) . وقوله تعالى « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » أى : أمر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال . لا يشغله شأن من شأن . وقوله تعالى « يُفَصِّلُ الْآيَاتِ » معنى : الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعمته الجليلة . أى يبينها في كتبه المنزلة . وقوله تعالى « لَمَّا كُمُ بِلِقَاءِ رَبِّكُم تُوَفَّقُونَ » أى : لعلكم توفقون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل ، لا بدّ لكم من المصير إليه ، بالبعث بعد الموت للجزاء؛ فإن من تدبر حق التدبر ، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية ، قدر على الإعادة والجزاء !

(١) [٢٢ / الحج / ٦٥] . (٢) [٣٦ / يس / ٣٨] (٣) [٨١ / التكاوير / ١] .
(٤) [٨٢ / الانقطار / ٢] . (٥) [٧ / الأعراف / ٥٤] .

لطائف

الأولى - جُوزَ في قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ) أن يكون الموصول خبراً ، وأن يكون صفة ، والخبر (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) . ورجح في (الكشف) الأول ، بأن قوله الآتي ^(١) (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ) عطف عليه على سبيل التقابل بين العلويات والسفليات . وفي المقابل الخبرية متمينة ، فكذا هذا ليمتوافقا . والجملة مقرررة لقوله ^(٢) (وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ) . وعدل عن ضمير الرب إلى الجلالة لترشيح التقرير . كأنه قيل : كيف لا يكون المنزل ممن هذه أفعاله هو الحق ؟ وتعريف الطرفين لإفادة أنه لا مشارك له فيها . لا سيما وقد جعل صلة للموصول . وهذا أشد مناسبة للمقام ، من جملة وصفاً مفيداً لتحقيق كونه مدبراً مفصلاً ، مع التعظيم لشأنهما . والمقصود بالإفادة قوله : (أَمَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) . فالعنى أنه فعلها كلها لذلك .

الثانية - قال القاضي : قوله تعالى (رَفَعَ السَّمَوَاتِ ... الخ) دليل على وجود الصانع الحكيم ، فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية ، واختصاصها بما يقتضى ذلك ، لا بد وأن يكون بمخصّص ليس بجسم ولا جسماني ، يرجح بعض المكينات على بعض بإرادته ، وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات .

الثالثة - (يدبّر) و (يفصل) يقرآن بالياء والنون . وهما مستأنقان . أو الأول حال من ضمير (ستخر) والثاني من ضمير (يدبّر) . أو كلاهما من ضمائر الأفعال المذكورة . ولما قرر الشواهد العلوية ، أرَدَها بذكر الدلائل السفلية على قدرته وحكمته . فقال تعالى :

(١) [١٣ / الرعد / ٣] . (٢) [١٣ / الرعد / ١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ » أى بسطها وجعلها متسمة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها .

قال الشهاب : استدل به بعضهم على تسطیح الأرض وأنها غير كربة بالفعل . وأن من أثبت أنه أراد به أنه مقتضى طبعها اورد بأنه ثبت كرتيتها بأدلة عقلية ، لكنه لعظم جرمها يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح ! وهكذا كل دائرة عظيمة . ولا يعلم كرتيتها إلا هو تعالى .

« وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ » أى : جبالاً ثوابت أوتاداً لها يكثر فيها النبات وتنحفظ تحتها المياه « وَأَنْهَاراً » متفجرة منها ، وذلك لتكاثر النبات والأشجار وحفظ الحيوان « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » أى : صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والبساتنى والجبلى ...

قال المصباحى : ليفيد كل صنف فائدة غير فائدة الآخر ، فكان كل صنف نعمة بعد الإنعام بأصول الأصناف ، وجعل لإتمام الإنعام بالأصناف المختلفة الطبائع لئلا تجتمع فتضار متناولها فصولاً مختلفة ، إذ

« يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ » أى : يابسبه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ! فبطول الليل يحصل الشتاء ، وبطول النهار يحصل الصيف ، وبأحد الاعتدالين يحصل الخريف ، وبالأخر الربيع « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى : فى مَدَّ الأرض وما بعده « لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ « أى آيات باهرة لقوم يفكرون فيستدلون بأن تكوين ما ذكر على هذا النمط البديع لا بد له من قادر حكيم ! أو يفكرون فيعلمون أن تكثير النعم جلب محبة النعم بصرفها إلى ما خلقت من أجله . والمحبة موجبة للرجوع إليه . وفيه إشارة إلى أن من دبر ذلك لمعيشهم ، أفلا ينعم عليهم بإرسال رسل وإنزال كتب ترشدكم إلى ما فيه سماعتهم ؟ بلى ، وهو أحكم الحاكمين .

لطائف :

الأولى - قال الرازى : من الاستدلال بأحوال الجبال ، أن يسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض . وذلك أن الحجر جسم صلب . فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة . ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض . فمنفعة الجبال فى تولد الأنهار هو من هذا الوجه ، ولهذا السبب . ففى أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال ، قرن بها ذكر الأنهار . مثل ما فى هذه الآية ، ومثل قوله ^(١) (وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَاخِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) .

الثانية - أشار الرازى إلى أن الناس ، كما ابتدأوا من زوجين اثنين بالشخص ، هما آدم وحواء ، فكذا الأشجار والزروع خلقت أولاً من زوجين اثنين ثم كثرت والله أعلم .

الثالثة - فى قوله (يُغِشَّى اللَّيْلَ النَّهَارَ) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيهه إزالة نور الجوّ بالظلمة ، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية ، أى يستر النهار بالليل . والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً - بالجل على تقديم المفعول الثانى على الأول - فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل ، إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغامى . وعدّه هذا فى تضايف الآيات السفلية ، وإن كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهراً - باعتبار أن ظهوره فى الأرض -

فإن الليل إنما هو ظلمها . وفيما فوق موقع ظلمها لا ليل أصلاً . ولأن الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والإفضاج ، على أنهما أيضاً زوجان متقابلان مثلها .
وقرى (يفتى) من الغشمية - أفاده أبو السمود .
ثم بين تعالى طائفة من الآيات بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

« وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » أى : بقاع متقاربات مختلفة الطبائع . فمن طيبة إلى سبخة ، ومن صلبة إلى رخوة ، مما يدل على قادر مدبر مرشد حكيم في صنعه « وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ » جمع صنو ، وهى نخلة أصلها واحد وفروعها شتى ، وفى (القاموس) النخيلان ، فما زاد فى الأصل الواحد ، كل واحدة منهما صنو .
ويضم أو عام فى جميع الشجر ، وإفراد الزرع لأنه مصدر فى الأصل يشمل القليل والكثير « يُسْقَىٰ » قرئ بالتحتية والوقية « بِمَاءٍ وَاحِدٍ » أى : بماء المطر أو بماء النهر « وَنُفِّضُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » فتفاضل قدراً وشكلاً ورائحة وطعماً . والأكل ، قرئ بضم الهمزة والكاف وتسكينها وهو ما يؤكل ، وهو هنا الثمر والحب . والمجرور إما ظرف لـ (نفضل) أو حال من بعضها ، أى : نفضل بعضها ما كولاً ، أو : وفيه الأكل « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ » أى : الذى فصل « لَآيَاتٍ » على وحدانيته تعالى وباهر قدرته « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فإن من عقل ما تقدم جزم بأن مَنْ قَدَّرَ على إبداعها وخلقها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتباينة المتجاورة ، وجعلها أحداث ذات بهجة - قادر على إعادة ما أبداه ، بل هو أهون فى القياس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

«وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» خطاب للنبي ﷺ ،
أى : إن تعجب من شئ فقولهم عجيب حقيق بأن يقتصر عليه التعجب ؛ لأن من شاهد ما
عدد من الآيات العجيبة التى تدل على قدرة يصغر عندها كل عظيم - أيقن بأن من قدر على
إنشائها ولم يمتدحها ، كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره . فكان إنكارهم أعجوبة من
الأعاجيب . وجوز أن يكون خطاباً لكل من يصلح له ، أى : إن تعجب ، يا من نظر فى
هذه الآيات ، وعلم قدرة من هذه أفعاله ، فازدد تعجباً ممن ينكر ، مع هذا ، قدرته على البعث ،
وهو أهون من هذه !

قال أبو السعود : والأنسب بقوله ^(١) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ) هو الأول و (عجب)
خبر قدم على المبتدأ للقتصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمراً عجيباً .
وقوله تعالى « أُولَئِكَ » أى المنكرون لقدرة على البعث « الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ »
أى : تمادوا فى الكفر ؛ فإن من أنكر قدرته تعالى فقد أنكره ؛ لأن الإله لا يكون عاجزاً ،
وفيه تكذيب لخبيره ورسوله عليهم السلام « وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ » أى : السلاسل
فى أيمانهم مشدودة إلى أعناقهم يوم القيامة ؛ لأنهم غلوا أفكارهم عن النظر فى هذه الأمور
كما جعلوا خالقهم مغلول القدرة على ذلك وهو القادر الحكيم . « وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ » .

(١) [١٣ / الرعد / ٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ » أى : يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية والسلامة منها ؛ وذلك أنهم سألوا رسول الله صلوات الله عليه ، أن يأتيهم بالمذاب استنزاء منهم بإنذاره .

قال الشهاب : والمراد بكونها قبل الحسنة ، أن سؤالها قبل سؤالها ، أو أن سؤالها قبل انقضاء الزمان المقدّر لها !

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ » أى : عقوبات أمثالهم من المكذبين . فإلهم لا يعتبرون بها ولا يخشون حلول مثلها ؟ أو العقوبات التي يضرب بها المثل في الشدة . والجملة حالية أو مستأنفة . و(المثالث) قراءة العامة فيها فتح الميم وضم الثاء جمع مُثْلَةٌ - كسمرة وسمرات - وهى العقوبة الفاضحة . سميت بها لما بين العقاب والمقاب عليه من المائلة كقوله (وَجَزَاهُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا) ، أو هى مأخوذة من المثل بمعنى القصاص . يقال : أمثاته وأقصصته بمعنى واحد ، أو هى من المثل المضروب لعظمها . وقرئُ بفتح الميم وسكون المثلثة ، وهى لغة أهل الحجاز . وقرئُ بضم الميم وسكون المثلثة ، وقرئُ بفتحهما وبضمهما .

وقوله تعالى « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ » من الناس من حمل المغفرة على المعارف منها ، وهو مغفرة الذنوب مطلقاً إلا حيث دلّ الدليل على التقييد في غير الموحّد فإن ظلمه - أعنى شركه - لا يغفر . وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة . ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوي . وهو الستر والصفح ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، أى : إنه ذو صفحٍ عظيمٍ لا يماجل بالعقوبة . مع أنهم يظلمون ويخطئون

بالليل والنهار . كما قال سبحانه^(١) : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب !

وعجب من الشهاب حيث وافق الرازي في دعواه (إن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة لأنه مخالف للظاهر ، ولا استعمال القرآن . وللازومه كون الكفار كلهم مغفورا لهم لأجل تأخير عقابهم إلى الآخرة) ولا يخفك صحة تسميته مغفرة لأنها في اللغة الستر . ومن أفراد الستر بالإمهال ؟ ودعوى أنه مخالف للظاهر ولا استعمال القرآن ، تحكم بحت على أسلوب القرآن ، بإرجاعه إلى ما أصّله . مع أن التحاكم إليه في الفروع والأصول ، وهو الحجة في اللغة والاستعمال ! ودعوى فساد الازوم وتهويل خطبه - فارغة ؛ لأنه لا محذور في ذلك . لا سيما وهو المناسب لاستعمالهم العذاب المذكور قبل ، فالإلزام صحيح ! ثم من المقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الآية في معناها كآية (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ...) الخ . فاذا كرر من التأويل مؤيد بهذه الآية ، فتفطن ولا تكن أسير التقليد ... !

ولما بين تعالى سعة حلمه ، قرنه ببيان قوة عقابه ، ليعتدل الرجاء والخوف ، فقال سبحانه : « وَإِنْ رَبُّكَ أَشَدُّ بِدُ الْعِقَابِ » أى : لمن شاء ، كما قال تعالى^(٢) : (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) . وقال تعالى^(٣) : (إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال سبحانه^(٤) : (نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(١) [٣٥ / فاطر / ٤٥] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٤٧] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٦٧] . (٤) [١٥ / الحجر / ٥٠ و ٤٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ،
وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » وهم المستمجلون بالسيئة المتقدمون .

قال أبو السعود : وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصول ، ذمًا لهم ونعمًا عليهم كفرهم
بآيات الله تعالى التي تحرّ لها صم الجبال ، حيث لم يرفعوا لها رأسًا ولم يمدّوها من جنس
الآيات وقالوا عنادا :

« لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » أى : مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ،
أو مثل ما يقترحون من جعل الصفا ذهبًا ، أو إزاحة الجبال وجعل مكانها مروجًا وأنهارًا
« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ » أى : مرسل للإنذار والتخويف من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون ،
وناصح كغيرك من الرسل . فما عليك إلا البلاغ ، لا إجابة المقترحات « وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ »
أى : نبيّ داعٍ إلى الحق مرشد بالآية التي تناسب زمنه كقوله تعالى ^(١) : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) تعريض بأنه عليه الصلاة والسلام ليس بدعًا من الرسل . فقد خلا قبله
الهداة الداعون إلى الله ، عليهم السلام ؛ أو المعنى : لكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم ،
هو الله سبحانه ، فما عليك إلا إنذارهم لاهدايتهم . وإيتاؤهم الإيمان وصددهم عن الجحود .
فإن ذلك لله وحده كقوله تعالى ^(٢) : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ؛
أو المعنى : (لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) قائد يهديهم إلى الرشده . وهو الكتاب المنزل عليهم الداعي
بمعنوا الهداية إلى ما فيه صلاحهم . يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء
إلى الهدى وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال في مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى
أحسنه . فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله . وقد

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] . (٢) [٢ / البقرة / ٢٧٢] .

لا يفيد إزالتها هداية ! قال تعالى ^(١) : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) (وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٢) مع ما يستتبع الإصرار بعدها من الأخذ بلا إمهال ! (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ^(٣) .

قال الشهاب : وجوز عطف (هادٍ) على (منذر) وجعل المتعلق مقدماً عليه ، للفاصلة فيدل على عموم رسالته وشمول دعوته . وقد يحمل خبر مبتدأ مقدر ، أي : وهو هادٍ ، أو وأنت هاد ، وعلى الأول فيه التفات . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)

[٩] (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)

« اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ » جملة مستأنفة ، جواب سؤال وهو : لماذا لم يجابوا لمقترحهم فتنقطع حججهم فلمعلمهم يهددون بأنه أمر مدبر عليم نافذ القدرة فقال ما تقضيه حكمته البالغة دون آرائهم السخيفة ؟ وهذا على أن (الهادى) بمعنى (الداعى إلى الحق) . وإن كان المراد به الله سبحانه ، فالجملة تفسير لقوله (هادٍ) أو مقررته مؤكدة لذلك - كذا فى (العناية) .

وأشار الرازى إلى أن الآية : إما متصلة بما قبلها مشيرة إلى أنه تعالى واسع العلم لا يخفى عليه أن اقترحهم عناد وتعنت ، وأنهم لا يزدادون بإظهار مقترحهم إلا عناداً ، فلذا لم يجابوا

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٠٩] . (٣) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] .

إليه . وإما متصلة بقوله (وَيَسْتَمِجِلُونَا) يعنى : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات . فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم أن فيه مصلحة .

ثم إن لفظ (ما) فى قوله تعالى (مَا تَحْمِلُ) مصدرية أو موصولة ، أى : حملها أو ما تحمله من الولد ، على أى حالة هو من ذكورة وأنوثة ، وتمام وخداج ، وحسن وقبح ، وطول وقصر . . . وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والترتبة .

« وَمَا تَنْيِضُ الْأَرْحَامُ » أى : تنقص من الحمل « وَمَا تَزْدَادُ » أى : تأخذه زائداً .

قال الزخشرى : ومما تنقصه الرحم وتزداده ، عدد الولد ؛ فإنها تشمل على واحد . وقد

تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة فى بطن أمه ، ومنه

جسد الولد فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته فإنها تكون أقل من تسعة أشهر .

وأزيد عليها ، ومنه الدم فإنه يقل ويكثر .

« وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » أى : بقدرٍ وحيدٍ لا يجاوزه حسب قابليته كقوله تعالى ^(١) :

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقوله ^(٢) (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) وذلك أنه

تعالى خص كل مكوّن بوقت وحال معينين ، وهما لوجوده وبقائه أسباباً مسوقة إليه تقتضى ذلك :

« عَالِمُ الْغَيْبِ » أى ما غاب عن الحس « وَالشَّهَادَةِ » أى ما شهد الحس « الْكَبِيرُ »

أى العظام الشأن الذى كل شىء دونه « الْمُتَمَالٍ » أى المستعمل على كل شىء بقدرته . أو

المنزه عن صفات المخلوقين ، المتعالى عنها .

وأكثر القراء على حذف ياء (الْمُتَمَالٍ) تخفيفاً ، وصلاً ووقفاً ، وقرئ بإثباتها فيهما

على الأصل .

(١) [٥٤ / القمر / ٤٩] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ » أى فى نفسه « وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » أى لغيره « وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ » أى : طالب الخفاء فى غتبا بالليل فى ظلمته « وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » أى : ذاهب فى سر به ، أى فى طريقه يبصره كل أحد .

لطيفة :

قيل : إن (سواء) بمعنى الاستواء وهو يقتضى ذكر شيئين ، وهنا إذا كان (سارب) معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة ، يكون شيئاً واحداً .

وأجيب عنه بوجهين : (الأول) أن (سارب) معطوف على (من هو) لا على (مستخف) كأنه قيل : سواء منكم إنسان هو مستخف وآخر هو سارب . و (الثانى) أنه عطف على (مستخف) . إلا أن (من) فى معنى الاثنين كقوله (١) :

* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَأْذِيبُ يَصْطَحِبَانِ *

كأنه قيل : سواء منكم اثنان هما مستخف وسارب . وعلى الوجهين (من) موصوفة لا موصولة . فيحمل الأولان على ذلك ليتوافق السكل .

وهناك وجه آخر وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية ؛ والمعنى : ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار . وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع . خصوصاً وقد

(١) البيت ، يخاطب فيه الذئب :

تَمَشَّ . فَإِنْ وَاقَقَنِى لَا تَخُونِى نَكُنْ مِثْلَ مَنْ ، يَأْذِيبُ ، يَصْطَحِبَانِ

وقائله الفرزدق من قصيدته التى مطلعها :

وَاطْلَسَ عَسَالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبًا دَعَوْتُ بِنَارِى مَوْهِنًا فَأَنَانِى

تكرر الموصول في الآية ثلاثاً . ومنه قوله تعالى ^(١) (وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)
والأصل : ولا ما يفعل بكم . وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه . لأن الجملة الثانية
لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف ، لم يكن للنفي موقع ؛ وإنما صحب في الأول
الموصول لا الصلة ، ومنه قول حسان رضي الله عنه ^(٢) :

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ !

أى : ومن يمدحه وينصره .

وهذا الأخير نقله الناصر في (الانتصاف) وهو وجيه جداً . وأما تضعيف غيره له ،
بلزوم حذف الموصول وصدر الصلة معاً ، وأن النجاة ، وإن ذكروا جواز كل منهما ، لكن
اجتماعهما منكر - فهو المنكر . لأن أسلوب التزيل هو الحجة ، وإليه التحاكم في كل فنٍ
ومعجزة ، والجمود على القواعد ورد ما خالفها ، إليها من القمصب واللجاج ، والغفلة عن مقام
التزيل في الاحتجاج !

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

« لَهُ مُعَقَّبَاتٌ » أى : لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب ، ملائكة يتعاقبون عليه

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٢) من قصيدته التي يهجو بها أبا سفيان . ومطلعها :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ إِلَى عِذْرَاءٍ مَنْزِلَهَا خَلَاءُ

ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام بأكناف دمشق وعذراء : موضع على بريد من دمشق .

« مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ » أى من جوانبه كلها ، أو من أعماله ، ما قدم وآخر « يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى : يراقبون ما يلفظ من قول وما يأتى من عمل ، خيراً أو شراً ، بأمره وإذنه ، أو من أجل أمره لهم بحفظه . فـ (من) تمليلية أو بمعنى باء السببية . ولا فرق بين العلة والسبب عند النحاة ، وإن فرق بينهما أهل المعقول .

وفى (الصحيح)^(١) : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . ويحتممون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصَلُّون وتركناهم وهم يصَلُّون . وفى الحديث الآخر^(٢) : إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاه ، وعند الجماع . فاستحيوهم وأكرمواهم !

و (المعقبات) جمع معقبة من (عقب) مبالغة فى (عقب) فالتفعيل للمبالغة والزيادة فى التعقيب فهو تكثير للفعل أو الماعل ، لا للتقدمة . لأن ثلاثيه متعدّ بنفسه وأصل معنى (المعقب) مؤخر الرّجل . ثم تجوز به عن كون الفعل بغير فاصل ومهلة . كأن أحدهم يطأ عقب الآخر . قال الراغب : عقبه إذا تلاه . نحو دَبَّرَهُ وَقَفَّاهُ وقيل : هو من (اعتقب) أدغمت التاء فى القاف ؛ وردّوه بأن التاء لاتدغم فى القاف من كلمة أو كلمتين . وقد قال أهل التصريف : إن القاف والسكاف ، كل منهما يدغم فى الآخر ولا يدغمان فى غيرها . والتاء فى (معقبة) واحدة (المعقبات) للمبالغة لالتأنيث ، لأن الملائكة لا توصف به . مثل نسابة وعلامة .

(١) أخرجه البخارى فى : ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ١٦ - باب فضل صلاة العصر ، حديث رقم ٣٥٩ ، عن أبى هريرة .

ومسلم فى : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، ٣٧ - باب فضل صلاتى الصبح والعصر ، والمحافضة عليهما ، حديث رقم ٢١٠ (طبعنا) .

(٢) لم أقف على هذا الحديث بعد البحث عنه فى ما بين يديّ من أصول السنّة .

أو هي صفة جماعة وطائفة . و (مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ) ظرف مستقر صفة (مُعَقَّبَاتٌ) أو ظرف لغو متعلق بها . و (مِنْ) لا ابتداء الغاية أو حال من الضمير الذي في الظرف الواقع خبراً . والكلام على هذه الأوجه يتم عند قوله (وَمِنْ خَلْفِهِ) . ويجوز أن يكون ظرفاً لـ (يَحْفَظُونَهُ) أى : معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، أى تحفظ ما قدم وآخر من الأعمال ، كناية عن حفظ جميع أعماله . ويجوز أن يكون (يَحْفَظُونَهُ) صفة لـ (مُعَقَّبَاتٌ) أو حالاً من الظرف قبله ، بمعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه .

تنبيهات :

الأول - ما قدمناه في معنى الآية هو الأشهر . وعن ابن عباس : هو السلطان الذي له حرس من بين يديه ومن خلفه .

قال الزمخشري : أى يحفظونه في توهمه وتقديره ، من أمر الله . أى من قضايه ونوازله . أو على التهكم به .

قال الرازي : وهذا القول اختاره أبو مسلم الأصفهاني . والمعنى : أنه يستوى في علم الله تعالى السر والجهر ، والمستخفي بظلمة الليل والسارب المستظهر بالأعوان والأنصار . وهم الملوك والأمراء ! فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره ، ومن سار نهجاً بالمعقبات - وهم الحراس والأعوان الذين يحفظونه - لم ينجم حرسه من الله تعالى ! والمعقب العون . لأنه إذا أبصر هذا ذاك ، فلا بد أن يبصر ذاك هذا . فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخر ، فهذه المعقبات لا تختص من قضاء الله ومن قدره ! وهم وإن ظنوا أنهم يخلصون بخدومهم من أمر الله ومن قضائه ، فإنهم لا يقدرون على ذلك البتة ! والمقصود من هذه الجملة : بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المسكاره ، عن حفظ الله وعصمته ، ولا يمتثلوا في دفعها على الأعوان والأنصار ، ولذلك قال تعالى بـ (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا . . .) الآية .

الثاني : قدمنا أن الضمير في (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ) لمن أسر أو جهر . . . الخ . وأرجعه بعضهم لله ، وما بعده (لمن) . قال الشهاب : فيه تفكيك للضمائر من غير داع . وقيل : الضمير (لمن) الأخير ، وقيل : للنبي لأنه معلوم من السياق .

الثالث - أشار الرازي في معنى الآية الأشهر إلى سر اختصاص الحفظة ببني آدم ، ما ملخصه : إنهم يدعون إلى الخيرات والطاعات بما يجده المرء من الدواعي القلبية إليها ؛ وإن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصى عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب . لأن من آمن ، يمتد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم ، فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها ، زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها ، كما يزجره عنها إذا حضره من يعظمه من البشر . وإذا علم أن الملائكة تحصى عليه تلك الأعمال ، كان ذلك أيضاً رادعاً له عنها . وإذا علم أن الملائكة يكتوبونها كان الردع أكمل . ١

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ » أى : من العافية والنعمة « حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » أى : من الأعمال الصالحة أو مملكتها ، التى هى فطرة الله التى فطر الناس عليها إلى أضدادها « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا » أى : لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك « فَلَا مَرَدَّ لَهُ » أى : فلا رد لقضائه فيهم « وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » أى : بلى أمرهم فيدفع عنهم السوء الذى أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من تغيير ما بهم . وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال . وإبذان بأنهم بما يشروه من إنكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة ، واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه - أفاده أبو السعود .

تنبيه :

في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع ، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة ، ومالوا مع الأهواء ، وتركوا التمسك بأدابه وسفته القوية ، حل بهم ما ينقلهم إلى الحن والبلايا ، ويفرق كلمتهم ، ويوهى قوتهم ، ويسلط عدوهم !

وفي حديث قدسيّ عند ابن أبي حاتم : ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيمّحون منها إلى معصية الله ، إلّا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون .
ولابن أبي شيبة : ما من قرية ولا أهل بيت ، كانوا على ما كرهت من معصيتي ، ثم تحوّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي ، إلّا تحوّل لهم عما يكرهون من عذاب ، إلى ما يحبون من رحمتي .
وقال القاشانيّ : لا بدّ في تغيير النعم إلى الفقم ، من استحقاق جليّ أو خفيّ .
وعن بعض السلف : إن الفارة مزّقت خفيّ . وما أعلم ذلك إلّا بذنب أحدثته ، وإلّا ما سلطها الله على ! وتمثّل بقول الشاعر ^(١) :

* لو كنتُ من مآزِنٍ لم تَسْتَبِيحْ إِبِلِي *

أقول : المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى ، وإلّا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم ، كما أشارت له الآية . وقد جوّد الكلام في ذلك ، الإمام مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلاميّ فقال :

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يمرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان) . فقرّر أن آيات الله الكبرى في صنع العالم إنّما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها الله في علمه الأزليّ . لا يغيّرها شيء من الطوارئ الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يفعل شأن الله فيها . بل ينبغى أن يحمي ذكره عند رؤيتها . فقد جاء على لسان النبي ﷺ ^(٢) : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته ،

(١) هذا مطلع الحاشية الأولى . وعجزه :

* بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهِلِّ بْنِ شَيْبَانَ *

وقائله بعض شعراء بلنبر ، واسمه قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ .

قال المازنيّ : ومعنى البيت : لو كنتُ مازنيّاً لم تُغَرِّبْ بَنُو اللَّقِيطَةِ على إِبِلِي .

(٢) أخرجه البخاريّ في ١٦ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب الصدقة في الكسوف ، =

فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله (وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد . لا يقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها . ثم أباط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التي يرزؤون بها . ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلاً لا مجال معه للاختلاط بينهما .

فأما النعم التي يتمتع الله بها بعض الأشخاص في هذه الحياة ، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه ؛ فكثير منها كالثروة والجاء والقوة والبنين ، أو الفقر والضعمة والضعف والفقد ، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان ! وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، إنظاراً لهم ، حتى يلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الأخرى ! وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة ، عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله : (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) ! فلا غضب زيد ، ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ، ولا في تلك النعم الخاصة ، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة . كارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجن ، وضياع السلطان بالظلم . وارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب . والمساكنة عند الناس بالسعى في مصالحهم على الأكثر . وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك ؛ فإن الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الإلهية : من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول

= حديث رقم ٥٨٤ ، عن عائشة .

ومسلم في : ١٠ - كتاب الكسوف ، ٢ - باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف ،

حديث رقم ٨ (طبعنا) .

إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل : ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ، ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة^(١) (وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها . يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقتها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ! واستبدل^(٢) الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون^(٣) (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) ! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا تكشف لما نزل إليهم ! لأن يلجأوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستقرلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر^(٤) (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)^(٥) . . . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه^(٦) . اللهم ! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة . . . !

- (١) [٣ / آل عمران / ١٤٥] . (٢) الصواب في استعمال الاستبدال والتبدل ، أن تفرق الباء بالمبدل منه (حاشية الطبعة الرابعة عشرة) . (٣) [١٧ / الإسراء / ١٦] . (٤) [١٣ / الرعد / ١١] . (٥) [٣٣ / الأحزاب / ٦٢] . (٦) جاء في (نيل الأوطار) عند حديث أنس الذي رواه البخاري : أن عمر بن الخطاب ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ... الخ . قال الشوكاني : وقد بين الزبير بن بكار ، في الأنساب ، صفة مادعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك . فأخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال ... الخ . انظر الصفحة رقم ٨ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي ، الطبعة الثانية) .

على هذه السنن ، جرى سلف الأمة ! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ،
ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ؛ كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ،
ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولىع بأهوائه ، ماضٍ في غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من
الحق شيئاً ... !

ولما خوف تعالى العباد بإزال مالا مردّله ، أتبعه ببيان آيات قدرته وقهره وجلاله .
فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)

[١٣] (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ
فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا » أى من الصواعق « وَطَمَعًا » أى بالمطر أن يحيى
النبات « وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ » أى بالماء « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ » أى يسبح
سامعوه من العباد الراجين للمطر متلبسين بحمده ، أى : يضجون بـ (سبحانه الله والحمد لله)
فيكون على حذف مضاف أو إسناداً مجازياً للحامل والسبب ، أو يسبح الرعد نفسه ، بمعنى
دلالاته على وحدانيته تعالى وفضله ، المستوجب لحمده . فيكون الإسناد على حقيقة والتجوز
في التسبيح والتحميد . إذ شبه دلالاته بنفسه على تنزيهه عن الشرك والعجز بالتسبيح والتعزیه
اللفظي . ودلالاته على فضله ورحمته ، بحمد الحامد لما فيها من الدلالة على صفات الكمال .

قال الرازى : الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص . والتسبيح والتقديس وما يجرى مجراهما ،
ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التعزیه والتقديس لله سبحانه وتعالى . فلما كان حدوث

هذا الصوت دليلاً على وجود متعالٍ عن النقص والإمكان ، كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً . وهو معنى قوله تعالى^(١) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) .

« وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » أى : وتسبح الملائكة من خوف الله تعالى وخشيته وإجلاله « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » أى : فيهلك بها من يشاء . وقوله تعالى « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ » يعنى الكفرة المخاطبين فى قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ) وقد التفت إلى الغيبة إبداناً بإسقاطهم عن درجة الخطاب وإعراضاً عنهم ، وتمديداً لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب . كأنه قيل : هو الذى يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة ، من إراءة البرق وإنشاء السحاب الثقال وإرسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته . ويعقلها من يعقلها من المؤمنين . أو الرعد نفسه والملائكة . ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيئته تعالى ، و (هم) أى الكفرة الذين حكيت هفواتهم مع ظلم وهوانهم وحقارة شأنهم ، يجادلون فى شأنه تعالى ، بإنكار البعث واستمجال العذاب ، استهزاء واقتراح الآيات . قالوا لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ) أفاده أبو السعود .

أى : يريكم ما ذكر من الآيات الباهرة الدالة على القدرة والوحدانية . وأنتم تجادلون فيه و (الجدال) أشد الخصومة ، من (الجدل) بالسكون - وهو قتل الحبل ونحوه ، لأنه يقوى به وتشدد طاقاته . « وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ » أى : والحال أنه شديد الماحلة والمأكرة والمكابدة لأعدائه . يأتينهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون ، من (تحكُّه) إذا كاده وعرضه للهلك ، ومنه (تمحل لكذا) إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه .

تنبية :

ذكر فى العلم الطبيعى : أن الصواعق شرارات تنطلق دفعة واحدة من تموجات السحب

(١) [١٧ / الإسراء / ٤٤] .

ومصادمتها لبعضها : فيحصل في الهواء اهتزاز قوى ، وأما الرعد فهو الصوت الذى يحصل من ذلك الانطلاق ويصل إلينا ببطء على حسب بعد السحب الحاملة للصواعق عنا . وعلى حسب اتساع السحب ، يطول سماعنا لصوت الرعد وإذا لمع البرق من السحابة ، فقد تمت نتائج الصاعقة . فتمت برهة لطيفة بين لمعان البرق وسماع الرعد ، فقد أُمن ضررها . فإن لم يمض بينهما شيء ، بأن كان الإنسان قريباً من محل الصاعقة وسمع الرعد مع مشاهدة البرق في آن واحد ، أمكن أن يصاب بالصاعقة في مرورها . وأما سبب انتعجار الصاعقة فقالوا : من المعلوم أن انطلاق الكهرباء إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها ، فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهرباء السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتنبجس بينهما شرارة كهربائية هي البرق . وحينئذ يقال : إن الأجسام الأرضية صعدت : هذا مجمل ما قالوه :

وقد حاول الرازى الجمع بين ما روى عن بعض السلف : أن الرعد ملك ، وبين ما ثبت في العلم الطبيعى بما يدفع المنافة فقال : اعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية ، فليسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره ؛ وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية . قال : وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله ، فهذا الذى قاله المفسرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحققون من الحكماء . فكيف يليق بالماقل الإنكار ؟ انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهٖ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)

« لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ » أى : الدعاء الحق بالعبادة والتضرع والإنابة ؛ وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لاغيره . لأنه الذى يجيب المضطر ويكشف السوء فهو الحقيق بأن يعبد وحده بالدعاء والاتجاء . فإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف للصفة .
وفيهما إيدان بعباستهما للحق ، واختصاصها به ، وكونها بمنزل من شائبة البطلان والضياع والضلال . كما يقال : كلمة الحق .

ثم بين تعالى مثال من يعبد من الأصنام ويدعى ، في عدم النفع والجدوى بقوله : « وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ » أى : الأصنام الذين يدعوه المشركون من دونه تعالى « لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ » أى : من مطلوباتهم « إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهٖ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ » أى : إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه أى كاستجابة الماء لمن مده يديه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء حماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بظمائه وحاجته إليه فلا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه . وكذلك ما يدعونه ، حماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على تفهمهم ! والغرض نفي الاستجابة على القطع بتصوير أنهم أحوج ما يكونون إليها لتحصيل مباغيتهم ، أخيب ما يكون أحد في سعيه لما هو مضطر إليه فضلاً عن مجرد الحاجة . وحاصله : أنه شبه آهتهم - حين استكفائهم إياهم ما أهمهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة ، وبقائهم لذلك في الخسران - بحال ماء يراى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك في زيادة ظمأ وشدة خسران ! والتشبيه على هذا من المركب التمثيلي في الأصل ، أبرز في معرض التهكم حيث أثبت

للماء استجابة ، زيادة في التخسير والتخسير . فالاستثناء مفرغ من أعم عام المصدر ، أى : لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة ، والضمير في (هو) للماء و (بالغه) للفم ، وقيل : الأول للبسط والثاني للماء . وبسط الكف : نشر الأصابع ممدودة كما في قوله ^(١) :
تَعَوَّدَ بَسَطَ الكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
« وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ » أى : عبادتهم والتجاؤهم لآلهتهم « إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى :
في ضياع لا منفعة فيه لعدم إمكان إجابتهم .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
إخبار عن عظمته تعالى وسلطانه الذى قهر كل شىء ، بأنه ينقاد لجلاله وإرادته وتصريفه
المكونات بأسرها من أهل الملأ الأعلى والأسفل ، طائعين وكرهين لا يقدر أن يعتمدوا
عليه ، وكذا تنقاد له تعالى ظلالهم حيث تقصف على مشيئته فى الامتداد والتقلص والقيء
(١) رواية البيت هكذا :

فَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهُ
انظر ديوان أبى تمام ص ٢٣٢ (طبعة بيروت) .

وص ٢٩ من الجزء الثالث بشرح الخطيب التبريزى (طبعة المعارف) .
والبيت من قصيدته التى مطلعها :

أَجَلُ أَيْهَا الرِّبْعُ الَّذِي خَفَّ آهْلُهُ
لَقَدْ أَدْرَكَتْ فِيكَ النُّوْيُ مَا تَحَاوَلُهُ
يعدح بها أمير المؤمنين ، المعتصم بالله .

والزوال! وقوله « بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » إما ظرف لـ (يسجد) والباء بمعنى (فى) والمراد بهما الدوام لأنه يذكر مثله للتأييد وإما حال من (الظلال) والمراد ما ذكر . أو يقال التخصيص لأن امتدادها وتقلصها فيهما أظهر . هذا ماجرى عليه الأكثر فى معنى (السجود) فيكون استعارة للانقياد المذكور ، أو مجازاً مرسللاً لاستعماله فى لازم معناه ، لأن الانقياد مطلقاً ، لازم للسجود .

وفى (تنوير الاقتباس) : تأويل السجود بالصلاة والعبادة وجمل (طوعاً وكرهاً) نشرأ على ترتيب الالف . قال (طوعاً) أهل السماء من الملائكة لأن عبادتهم بغير مشقة و (كرهاً) أهل الأرض لأن عبادتهم بالمشقة . ثم قال . ويقال (طوعاً) لأهل الإخلاص و (كرهاً) لأهل النفاق . ثم قال : (وظلالهم) يعنى وظلال من يسجد لله أيضاً ، وتسجد غدوة عن أيمانهم ، وعشية عن شمائلهم .

قال أبو السعود : وقد قيل : إن المراد حقيقة السجود ، فإن الكفرة حال الاضطراب وهو المعنى بقوله تعالى (وَكَرْهُاً) يخصون السجود به سبحانه . قال تعالى ^(١) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفعالاً وعقلاً بها تسجد لله سبحانه ، كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى . كما قاله ابن الأنبارى . ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها . وأنت خبير بأن اختصاص سجود الكافر ، حالة الضرورة والشدة ، بالله سبحانه لا يجدى ، فإن سجودهم لأصنامهم حالة الرخاء مخلّ بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور ، فالوجه حل السجود على الانقياد ولأن تحقيق انقياد الكل فى الإبداع والإعدام له تعالى ، أدخل فى التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى . وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضاً كذلك لأنهم العمدة . وانقيادهم دليل انقياد غيرهم . انتهى .

(١) [٢٩ / النكبات / ٦٥] .

وهذه الآية كقوله تعالى^(١) (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقوله^(٢) :
(أَوَلَمْ يَرْوُا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ...) (آية .

تنبيه :

هذه السجدة من عزائم سجود التلاوة ، فيسنّ للقارىء والمستمع أن يسجد عقد قراءته واستماعه لهذه السجدة - كذا في (الباب) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)
« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أي خالقهما « قُلِ اللَّهُ » أمرٌ بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام ، إشعاراً بتعيينه للجواب ، فهو والخصم في تقريره سواء . أو أمره بحكاية اعترافهم ، إيذاناً بأنه أمر لا بدّ لهم منه . كأنه قيل : احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة « قُلْ » أي : إلزاماً لهم وتبكيثاً « أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ » أي : أيمدّ أن علمتموه ربّ السموات والأرض ، عبدتم من دونه غيره فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم ، سبب الإشراك ؟ أفاده الزمخشري .

« لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أي : لا يقدرّون على نفع أنفسهم ولا على دفع الضرر عنها . فكيف يستطيعونه لغيرهم ! فإذا عبادتهم محض العبث والسهو ! « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ » لما بين ضلالهم وفساد

(١) [٣ / آل عمران / ٨٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٤٨] .

رأيهم في الحجة المذكورة، يتن أن الجاهل بها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير، والجاهل يمثلها كالظلمات، والعلم بها كالنور ! وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوى البصير والظلمة لا تساوى النور ، كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوى العالم بها ! « أَمْ جَمَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : بل أجمعوا ، والهمزة للإنكار ، وقوله : « خَلَقُوا كَخَلْقِهِ » صفة لـ (شركاء) داخله في حكم الإنكار « فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ » أى : خلق الله وخلقهم ؛ والمعنى : أنهم ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها . ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق ، فضلاً عما يقدر عليه الخالق .

قال الناصر: وفي قوله تعالى : (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) في سياق الإنكار ، تهكم بهم . لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله ، تقدس عن التشبيه ؛ ولا بطريق الانحطاط والقصور . فقد كان يكفى في الإنكار عليهم ، أن الشركاء التى اتخذوها لا تخلق مطلقاً ، ولكن جاء في قوله تعالى (كَخَلْقِهِ) تهكم يزيد الإنكار نأ كيداً !

« قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » أى : لا خالق غير الله ، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق ، فلا يكون له شريك في العبادة ! « وَهُوَ الْوَاحِدُ » أى . المتوحد بالربوبية « الْفَهَّارُ » الذى لا يغالب ، وما عداه مربوب ومقهور !

ثم ضرب تعالى مثلين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائته بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ » أى الزن « ماءً » أى مطراً « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » أى :

بمقدار ملئها في الصغر والكبر ، أى أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره « فَأَخْتَمَلُ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى : تحمل ورفع ، من قوة الجيشان ، زبدا عاليا على وجه الماء « وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ » أى : من نحو الذهب والفضة والنحاس ، مما يسبك في النار « ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » أى : طلب زينة « أَوْ مَتَاعٍ » كالأواني وآلات الحرب والحراث « زَبَدٌ مِثْلُهُ » أى : مثل زبد السيل . وهو خبثه الذي ينفيه الكبير « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » أى مثلهما ، أى : إذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام . كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما ، مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل . وقد بين ذلك بقوله تعالى « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً » أى مقدوفاً مرمياً به ، أى : فلا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادى ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح . وكذلك خبث ما يوقد عليه من المعادن يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا ما ينتفع به من الماء والمعدن كما قال : « وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » أى يبقى فيها منتفعاً به « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » أى : يبين أمثال الحق والباطل !

تنبيهات

الأول - قدمنا أن هذه الآية مثل ضرب به الله للحق وأهله . والباطل وحزبه ، كما ضرب الأعمى والبصير والظلمات والنور مثلاً لها . فمثل الحق وأهله بالماء الذي يُنَزِّلُهُ مِنَ السَّمَاءِ فتسيل به أودية الناس فيحییون به وينفعهم بأنواع المنافع . وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وأن ذلك ما كثر في الأرض باقٍ بقاء ظاهراً . يثبت الماء في مناقفه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار . وكذلك المعدن يبقى أزمنة مطاولة ؛ وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن . فإنه - وإن علا وارتفع واتفخ - إلا أنه أخيراً يضمحل ؛

وكذلك الشبهات والتعويهاات الزائفة قد تقوى وتعظم . إلا أنها في الآخرة تبطل وتضمحل وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لا يشوبه شئ من الشبهات . لأنه لا بقاء إلا للنافع . وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق بقرنه . . !

الثاني - قوله تعالى (بِقَدَرِهَا) صفة (أودية) ، أو متعلق بـ (سالت) أو (أنزل) .
وقرأ عامة القراء بفتح الدال ، وقرأ زيد بن علي والأشهب وأبو عمرو ، في رواية ، بسكونها .
الثالث - قوله تعالى (احْتَمَل) بمعنى حمل ، فالزيد بمعنى المجرى - كذا قيل . ويظهر لي :
أن إثارته عليه لزيادة في معناه ، وقوة في مبناه !

الرابع - الأودية جمع واد . وهو مفرج بين جبال أو تلال أو آكام . والإسناد إليه مجاز عقلي ، كما في (جرى النهر) .

قال السمين : وإنما نكّر الأودية وعرف السيل ، لأن المطر ينزل في البقاع على المناوبة فيسيل في بعض أودية الأرض دون بعض . وتعريف السيل لأنه قد فهم من الفعل قبله وهو (فسالت) ، وهو لو ذكر لكان نكرة . فلما أعيد أعيد بلفظ التعريف نحو : رأيت رجلاً فأكرمت الرجل . انتهى .

وأصله لأبي حيان حيث قال : عرف السيل لأنه عني به ما فهم من الفعل . والذي يتضمنه الفعل من المصدر وإن كان نكرة ، إلا أنه إذا عاد في الظاهر كان معرفة . كما كان لو صرح به نكرة . وكذا يضمن إذا عاد على ما دل عليه الفعل من المصدر نحو : من كذب كان شراً له ، أي الكذب . ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من (فسالت) . وأورد عليه : أنه كيف يجوز أن يعنى به ما فهم من الفعل وهو حدث ، والمذكور المعروف عني ، فإن المراد به الماء السائل ؟ وأجيب : بأنه بطريق الاستخدام !

قال الشهاب : وهو غير صحيح ، لا تكلف - كما قيل - لأن الاستخدام أن يذكر لفظ بمعنى ويماد عليه ضمير بمعنى آخر . سواء كان حقيقةً أو مجازياً ؛ وهذا ليس كذلك . لأن الأول

مصدر ، أى حدث فى ضمن الفعل ، وهذا اسم عين ظاهر يتصف بذلك الحدث ، فكيف يتصور فيه الاستخدام ؟ نعم ! ما ذكره أغلبى لا يختص بما ذكر ، فإن مثل الضمير اسم الإشارة ، وكذا اسم الظاهر كما فى قول بعضهم :

* أخت الغزاة إشرافاً وملتفتاً *

فالحق أنه إنما عرّف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله (أودية) وإنما لم يجمع لأنه مصدر بحسب الأصل .

الخامس - قوله تعالى (وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ) جملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى ، لضرب مثل آخر . و (زبد) مبتدأ قدم عليه خبره ، و (مِنْ) فى (مِمَّا) للابتداء أى : نشأ منه ، وجوز كونها للتبعيض أى : هو بعضه ؛ وردّه أبو السعود بأنه يخلّ بالتمثيل . وقوله (فِي النَّارِ) صفة مؤسسة ؛ لأن الموقد عايه يكون فى النار وملاصقاً لها ، وقيل : إنها مؤكدة . وقال أبو السعود : فى زيادة النار إشعار بالمبالغة فى الاحتمال للإذابة وحصول الزبد . وعدم التعرض لإخراجه من الأرض لعدم دخل ذلك العنوان فى التمثيل ، كما أن لعنوان إنزال الماء من السماء دخلاً فيه حسبما فصل فيما سلف ، بل له إخلال بذلك . وسرّ التعبير بالموصول فى قوله (وَمِمَّا يُوقِدُونَ ...) الخ الإيجاز بجمعه لأنواع المعادن مع إظهار الكبرياء بالتهاون بها ، كأن أشرف الجواهر خميس عنده تعالى ، إذا عبّر عن سبكه بإيقاد النار به ، المشعر بأنه كالخطب الخسيس ، وصوّره بحالة هي أخط حالاته . وهذا لا ينافى كونه ضرباً مثلاً للحق . لأن مقام الكبرياء يقتضى التهاون به ، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفعاً به بقوله (ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ) فوقى كلاً من المقامين حقه .

السادس - قدمنا أن قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) على حذف مضاف ، أى مثاهما ، وسرّ الحذف الإنباء عن إكمال التماثل بين المثل والمثل به . كأن المثل المضروب عين الحق والباطل ! .

السابع : بدأ بالزبد في البيان في قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ) وهو متأخر في الكلام السابق ، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله ^(١) (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ...) الخ وقد راعى الترتيب فيه . ولك أن تقول النكته فيه أن الزبد هو الظاهر المنظور أولاً ، وغيره باقٍ متأخر في الوجود لاستمراره . والآية من الجمع والتقسيم ، على ما فصله الطيبي - كذا في (العناية)

الثامن - قوله تعالى (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيده لقوله (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) إما باعتبار ابتداء هذا على التمثيل الأول ، أو بجمل ذلك إشارة إليهما - كذا في أبي السمود .
التاسع - أشار الحافظ ابن كثير إلى كثرة ضرب الأمثال النارية والمائية في التنزيل والسنة ، قال :

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مَثَلَيْنِ - ناري ومائي - وهو قوله ^(٢) (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ...) الآية ، ثم قال ^(٣) (أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ...) الآية ؛ وهكذا ضرب للكافرين في سورة الفور مَثَلَيْنِ أحدهما قوله ^(٤) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ...) الآية ، والسراب إنما يكون في شدة الحر ؛ ولهذا جاء في (الصحيحين) ^(٥) : (فيقال لليهود يوم القيامة : فما تريدون ؟ فيقولون ؟ أي ربنا ! عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترُدُّون ؟ فترُدُّون)

(١) [٣ / آل عمران / ١٠٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩] . (٤) [٢٤ / النور / ٣٩] .

(٥) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٤ - سورة النساء ، ٨ - باب إن الله لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، حديث رقم ٢١ ، عن أبي سعيد الخدري .
وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٣٠٢ (طبعنا) .

النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً) . ثم قال تعالى في المثل الآخر ^(١) (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ . . .) الآية . وفي (الصحيحين) ^(٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال : إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروءوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى . إنما هي قيمان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى، ونفع به فعمله وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، فهذا مثل الماء . وفي (مسند الإمام أحمد) ^(٣) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمهن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار : هلم عن النار ! فتغلبوني فتقتحمون فيها . . . وأخرجه في (الصحيحين) ^(٤) أيضاً . فهذا مثل نارى . انتهى .

ولما بين سبحانه شأن كلٍّ من الحق والباطل حالاً ومآلاً ، تأثره ببيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً . ترغيباً وترهيباً ، بقوله :

(١) [٢٤ / النور / ٤٠] .

(٢) أخرجه البخارى في : ٣ - كتاب العلم ، ٢٠ - باب فضل من علم وعلم ، حديث ٦٨ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ٢٤٤ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

والحديث رقم ٧٣١٨ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه البخارى في : ٨١ - كتاب الرقاق ، ٢٦ - باب الانتهاء عن المعاصى ،

حديث رقم ١٦١٠ .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ » أى : للمؤمنين الذين استجابوا لربهم بطاعته وطاعة رسوله ، والتموه الحسنى كما قال تعالى ^(١) : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) الحسنى مبتدأ قدم عليه خبره الموصول « وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ » وهم الكفرة « لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ » أى : بما فى الأرض ومثله معه من أصناف الأموال ، ليتخلصوا عما بهم . وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان ولأجله عدل عن أن يقال : وللذين لم يستجيبوا السوءى ، كما تقتضيه المقابلة « أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ » أى : فى الدار الآخرة ، فيناقشون على الجليل والحقير « وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » أى : المستقر . وفى قوله (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) إشعار بتفسير الحسنى بالجنة ، لانقهاها من مقابلتها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ » أى يصدق « أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » يعنى القرآن « الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ » أى : كمن لا يعلم ذلك ، إلا أنه أريد تقييح حاله فعبر عنه بالأعمى « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » أى : العقول البراة عن مشايعة الإلـف ومتابعة الوهم .

(١) [١٠ / يونس / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ)

« الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ » أى : مما كلفهم به « وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ » أى : ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ، وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل - أفاده أبو السمود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ

سُوءَ الْحِسَابِ)

« وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » أى : من أرحمهم وقراباتهم وإخوانهم المؤمنين ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم والنصيحة لهم وكف الأذى عنهم « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » أى : يعملون له أو يخافون وعيده فلا يعصونه فيما أمر « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » أى : يدفعون بالكلام الحسن الكلام السيئ إذا خاطبهم به الجاهلون كما قال تعالى ^(١) : (اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) الآية ، أو يتبعون

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٩٦] .

السيئة الحسنة لتحوها « أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُوبَى الدَّارِ » أى : عاقبة الدنيا وهى الجنة . لأنها مرجع أهلها . فتعريف الدار للمهد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ،

وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ)

[٢٤] (سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)

« جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » أى : آمن ووحد وعمل صالحاً من هؤلاء .

قال أبو السعود : وفى التقييد بالصلاح قطع للأطباع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبب الأنساب .

وأصله للزجاج حيث قال : بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة ، بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال الصالحة .

وقرى - شاذاً - بضم لام (صلح) . قال الزمخشري : والفتح أنصح .
« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين تعالى مآل مقابل الفريق الأول بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)

« وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أَوْ آلَتْكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ « أى : عذاب جهنم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؛ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » هذا كقوله تعالى ^(١) (أَيْحْسِبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ *
نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) . وتفكير (متاع) للتقاييل كفى آية ^(٢) (قُلْ مَتَاعُ
الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظْلَمُونَ فَتِيلًا) وقال ^(٣) : (بَلْ تُؤْثِرُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ : إِنْ اللَّهُ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ » كقولهم ^(٤) : « (فَلْيَسْأَلْنَا
بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) وتقدم الكلام على هذا غير مرة . وقوله تعالى : « قُلْ إِنْ اللَّهُ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ » جملة جرت مجرى التعجب من قولهم ، مشيرة إلى
أنه من باب العناد والافتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يعقل أحد بعد
جميعها ، لا من باب طلب الهداية . وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إزال
هذا الكتاب من مثله ، صلوات الله عليه ، فإنه آية الآيات . . ! ولكنهم قوم

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧٧] .

(٣) [٨٧ / الأعلى / ١٦ و ١٧] . (٤) [٢١ / الأنبياء / ٥] .

آثروا الضلال على الهدى ، زاغوا عنه فأزاح الله قلوبهم . فطوى ما دل عليه هذه الجملة ، إيجازاً للعلم بها .

قال أبو السعود : (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ) إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها ، أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره إلى تحصيله ، ويدعه منهمكاً فيه . لعله بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد كمن كان على صفتكم في المكابرة ، والعناد ، والغلو في الفساد . فلا سبيل له إلى الاهتداء ، ولو جاءته كل آية . ثم قال : (وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ) أى : أقبل إلى الحق وتأمل في تضايف ما نزل من دلائله الواضحة . وحقيقة الإنابة الدخول في نوبة الخير . وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة ، كما في الصلة الأولى ، للتنبيه على الداعي إلى الهداية بل إلى مشيئتها ، والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى المكابرة . وفيه حث للكفرة على الإقلاع عما هم عليه من العتو والعناد . وإيثار صيغة الماضي للإيحاء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة ، كما أن إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم ، انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

« الَّذِينَ آمَنُوا » بدل من (من أناب) أى : آمنوا بالله ورسوله وكتابه « وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ » أى تسكن وتخشى عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً . والمدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره « أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » أى : بذكره دون غيره تسكن القلوب أنساً به ، واعتماداً عليه ، ورجاء منه ؛ وقد ر بعضهم مضافاً .

أى بذكر رحمته ومغفرته ، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ؛ ورأى آخرون أن المراد

(بذكر الله) القرآن ، لأنه يسمى ذكراً ، كما قال تعالى ^(١) : (وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكُ أَنْزَلْنَاهُ) وقال سبحانه : ^(٢) : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها . وهذا المعنى يناسب قوله ^(٣) : (لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) أى : هؤلاء ينكرون كونه آية . والمؤمنون يعملون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ويرد اليقين . قال الشهاب : وهو أنسب الوجوه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بِ)

« الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا بِ » الموصول إما مبتدأ (طوبى لهم) مبتدأ ثان وخبر فى موضع الخبر الأول ، وإما خبر لمخدوف أى هم ، وإما بدل من (أناب) وجمله (طوبى لهم) دعائية أو خبرية .

قال الزمخشري : (طوبى) مصدر من (طاب) كبشرى وزلفى ، ومعنى (طوبى لك) أصبت خيراً وطيباً . ومحملها النصب أو الرفع . كقولك . طيباً لك وطيب لك ، وسلاماً لك وسلام لك . والقراءة فى قوله (وحسن ما ب) بالرفع والنصب تدل على محليها ، واللام فى (لهم) للبيان مثلها فى (سقياً لك) ، والواو فى (طوبى) منقلبة عن ياء ، لضمه ما قبلها . قال ثعلب : قرئ طوبى لهم بالتثنية .

قال الفاسى : ومن نون (طوبى) جملة مصدراً بغير ألف كسقيماً وزعم بعضهم : أنها كلمة أعجمية . وفى (لسان العرب) عن قتادة : أنها كلمة عربية ، تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ! وأنشد :

طوبى لمن يستبدل الطودَ بالقرى ورسلاً بيقطين العراقِ وقومهمـ

السل اللبن ، والطود : الجبل ، والقوم : الخبز والحنطة - كذا فى (تاج العروس) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٥٠] . (٢) [١٥ / الحجر / ٩] . (٣) [١٠ / يونس / ٢٠] .

[٣٠] (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ الَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب)

« كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ » أى مضت « مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهُمْ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى : لتبلغهم هذا الوحي العظيم والذكر الحكيم ، كما بلغ من خلا قبلك
من المرسلين أممهم . وقوله : « وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ » جملة حالية أو مستأنفة أى :
يكفرون بالبالغ الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شيء . والمدلول إلى المظهر الدال على الرحمة ، إشارة
إلى أن الإرسال نائى منها ، كما قال تعالى ^(١) (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وإلى أنهم لم
يشكروا نعمة هذا الوحي الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية ، وإلى أن الرحمن من أسمائه الحسنى
ونعوته العليا ، وقد كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم ، ولهذا لم يرضوا يوم الحديبية ^(٢) أن
يكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم) وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم ؟ كما فى الصحيح . وقد
قال تعالى ^(٣) (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) . وفى (صحيح مسلم) ^(٤) عن ابن عمر
مرفوعا : (أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن) .

« قُلْ هُوَ » أى : الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته « رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب » أى : توبتى وإنابتى . فإنه لا يستحق ذلك غيره . ثم أشار
تعالى إلى عظمة هذا الوحي وتفضيله على ما سواه بقوله :

(١) [٢١ / الأنبياء / ١٠٧] . (٢) حديث يوم الحديبية أخرجه البخارى فى :

٥٤ - كتاب الشروط ، ١٥ - باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة

الشروط ، حديث رقم ٨٨١ و ٨٨٢ عن المسور بن مخرمة ومروان ، وهو حديث طويل جامع ،

فلا يفوتك الاطلاع عليه . ففيه غنى كبير . (٣) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعِيعَادَ) « وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا » أى قرآنًا ما « سُيِّرَتْ بِهِ » أى : بإزاله أو بتلاوته « الْجِبَالُ » أى أذهبت عن مقارها ، وزعزت عن أماكنها « أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ » أى : شُقَّتْ حتى تمصدع وتصبح قطعاً « أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ » أى خوطبت بعد أن أحييت بتلاوته عليها ، والجواب محذوف أى : لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في الهداية والتذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف . وعلى هذا التقدير ، فالقصد بيان عظم شأن القرآن وفساد رأى الكفرة حيث لم يقدروا قدره العلى ولم يعدوه من قبيل الآيات . فافترحوا غيره مما أوتى موسى وعيسى عليهما السلام . وقدر الزجاج الجواب (لما آمنوا به) كقوله : ^(١) (وَلَوْ أَنَّآ نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ...) الآية ، وعليه فالقصد بيان غلومهم في المكابرة والتمناد وتماديهم في الضلال والفساد .

ونقل عن الفراء : أن الجواب مقدم عليه وهو قوله (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) وما بينهما اعتراض . وفيه بعد وتكلف . وأشار بمضهم إلى أن مراده أنها دليل الجواب ؛ والتذكير فى (كلم) لتغليب المذكور من الموتى على غيره .

وقوله تعالى « بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا » أى : له الأمر الذى عليه يدور فلك الأكوان وجوداً وعدماً ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لما يدعو إليه من الحكم البالغة وهو إضراب عما تضمنته (لو) من معنى النفي ، أى : لو أن قرآنًا فعل به ما ذكر لكان هذا القرآن .

(١) [٦ / الأنعام / ١١١] .

ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن . لأن الأمر كله له وحده . وعلى تقدير الزجاج السالف ، فالإضراب متوجه إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح .
أى : فليس لهم ذلك بل لله الأمر جميعا . إن شاء أتى بما اقترحوا وإن شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكم أو اقتراح . كذا فى
أبى السمعود .

وقوله تعالى « أَفَلَمْ يَبَيِّنْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءَ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا » أى :
أفلم يعلم ويتبين كقوله (١) :
أَلَمْ يَبَيِّنِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا
وقوله (٢) :

أقول لهم بالشَّعبِ إذ يَسِرُّونى أَلَمْ تَبَيَّنُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمَ
أى : ألم تعلموا ! ويديرونى من إيسار الجزور ، أى يقسمونى ، ويروى : بأمر وبنى
من (الأسر) . أى : أفلم يعلموا أنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم ، لأن الأمر له . ولكن قضت
الحكمة أن يكون بقاء التكليف على الاختيار .

« وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا » أى : من أهل مكة « تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ »
أى : بسبب ما صنعوه من الكفر والتماذى فيه . وعدم بيانه لهويله أو استهجانه . والقارعة :
الداهية التى تفرع وتقلق ، يعنى ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والأسر

(١) انظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

ومعجم غريب القرآن صفحة ٢٣٢ و ٢٩١ (طبعنا) .

(٢) انظر مجاز القرآن ، لأبى عبيدة ، الصفحة رقم ٣٣٢ من الجزء الأول ، والبيت رقم ٣٨٣ .

وانظر تفسير الطبرى بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر أساس البلاغة بالصفحة رقم ٥٥٨ من الجزء الثانى .

والنهب والسلب « أَوْ تَحُلْ » أى : تلك القارعة « قَرِيْبًا » أى : مكانا قريبا « مِنْ دَارِهِمْ » فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها « حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ » أى : فتح مكة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » أى : لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى (١) : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) وفى الآية وجه آخر ، وهو حمل (الذين كفروا) على جميع الكفار أى : لا يزالون ، بسبب تكذيبهم ، نصيبهم التوارع فى الدنيا أو نصيب من حولهم ليعتبروا ، كقوله تعالى (٢) : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْفُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) وقوله (٣) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَابِیُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا » أى : امهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمن ، فى أمن ودعة ، كما على البهيمة فى المرعى « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ » أى : عقابى إياهم . وفيه من الدلالة على فظاعته ما لا يخفى . والآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقي من المشركين من التكذيب والافتراح ، على طريقة الاستهزاء به ، ووعيد لهم .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٧] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ٢٧] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » أى : مراقب لأحوالها ومشاهد لها ، لا يخفى عليه ما تكسبه من خير أو شر . فهو مجاز ، لأن القائم على الشيء عالم به ، ولذا يقال : وقف عليه - إذا علمه فلم يخف عليه شيء من أحواله ، والخبر محذوف تقديره : كمن ليس كذلك - وإنما حذف اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ » أى : عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان وقوله : « قُلْ سَمُّوهُمْ » تبكى لهم إثر تبكيتهم ، أى : سمّوهم من هم ، وماذا أسماؤهم ؟ فإنهم لاحقيقة لهم ! أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشراكة ؟

وقال الرازى : إنما يقال ذلك فى الأمر المسحق الذى بلغ فى الحقارة إلى الابدكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال : سمّه إن شئت ، يعنى : أنه أخس من يسمّى وبذكر ، ولكنك إن شئت أن تضع له اسماً فافعل . فكأنه تعالى قال : سمّوهم بالآلهة ، على سبيل التهديد ، والمعنى : سواء سمّيتهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به ، فإنها فى الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها .

« أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ » أى : بشركاء لا يعلمهم سبحانه . وإذا كان لا يعلمهم ، وهو عالم بكل شيء مما كان ومما يكون ، فهم لاحقيقة لهم . فهو نفى لهم بنفى لازمهم على طريق الكناية .

قال الناصر : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء وأن الله لا يعلمهم كذلك لأنهم ليسوا كذلك ، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربوبة حادثة لا آلهة معبودة . ولكن

محىء النفى على هذا السَّنَنِ المَلَوِّ بديعٌ لا تسكتنه بلاغته وبراعته . ولو أتى الكلام على الأصل غير محلى بهذا التصريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء وما هم بشركاء . فلم يكن بهذا الموقع الذى انقضت التلاوة .

وقوله تعالى « أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ » أى : بل أئسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كتسمية الزنجى كافوراً من غير بياض فيه ولا رائحة طيبة ، لفرط الجهل وسخافة العقل ، وهذا كقوله تعالى ^(١) : (ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ) . (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا) ^(٢) . وعن الضحاك : إن الظاهر بمعنى الباطل ، كقوله ^(٣) :

وذلك عارٌ يا ابن ربيعة ظاهراً . .

تنبيه :

قال الزخشرى : هذا الاحتجاج وأسايبه المجيبة التى ورد عليها ، مناد على نفسه بلسان طلق ذلق ؛ أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه .

قال شارحوه : فإن قوله تعالى (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) لما كان كافياً فى هدم قاعدة الإشراف مع السابق واللاحق وماض من زيادات الفسكت ، وكان إبطاً من طريق حق ، مذبلاً بإبطال من طرف النقيض على معنى : ليتهم إذا أشركوا بمن لا يجوز أن يشرك به ، أشركوا من يتوهم فيه ذلك أدنى توهم ، وروى فيه أنه لا أسماء للشركاء ولا حقيقة لها فضلاً عن المسمى على السكناية الإيمائية . ثم بوانغ بأنها لا تستأهل أن يسأل عنها على السكناية التلويحية استقلاً لا بنفى العلم عن نفى المعلوم . ثم منه إلى عدم الاستئصال مع التوبيخ ، وتقدير أنهم يريدون أن ينبشوا عالم السرائر والخفيات بما لا يعلمه وهو محال على محال وفى جعل اتخاذهم شركاء .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٠] .

(٣) لم أعرف تمام البيت ، ولا من هو قائله ، ولم أهتد إليه فيما بين يدي من الكتب .

فن داره فليثبته هنا مشكوراً مأجوراً .

ومجادلة الرسول عليه الصلاة والسلام إنباء له تعالى ، نكتة بل نكت سرية . ثم أضرب عن ذلك وقيل : قد بين الشمس لدى عيين وماتلك التسمية إلا بظاهر من القول لا طائل تحته بل هو صوت فارغ .

فمن تأمل حق التأمل ، اعترف بأنه كلام خالق القوى والقدر ، الذى تقف دون أستار أسرارهم أفهام البشر ... !

وقوله تعالى : « بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ » إضراب عن الاحتجاج عليهم . كأنه قيل : دع ذكر ما كنا فيه من الدلائل على فساد قولهم . لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم ، فلا ينتفعون بهذه الدلائل .
وقوله تعالى :

« وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ » أى : عن سبيل الله ، وقرئ : بفتح الصاد أى : صدوا الناس « وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ » أى : يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ، أو يحذله « فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ » أى : من أحد يهديه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ

مِنْ وَّاقٍ)

« لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وهو ما نالهم على أيدي المؤمنين ، أو مافيه من عذاب الحيرة والضلالة . فإن نفس غير المؤمنين فى نكد مستمر وداء دوى لا برء له إلا الإيمان . كما فصل فى موضع آخر « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ » أى : من عذاب الدنيا كمًا وكيفًا « وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّاقٍ » أى : حافظ يعصمهم من عذابه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، أُكْلُهَا دَائِمٌ

وَزَلِيلٌ ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ)

« مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ » أى عن الكفر والمعاصى « تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ ، أُكْلُهَا دَائِمٌ وَزَلِيلٌ ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ » .

في الآية وجوه من الإعراب :

(الأول) : أن (مثل) مبتدأ خبره محذوف ، أى : فيما يقص وبتلى عليكم صفة الجنة ،

وجملة (تَجْرَى) مفسرة أو مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال من ضمير (وعد) أى : وعدها

مقدراً جريان أنهارها . وهذا الوجه سالم من التكلف ، مع مافيه من الإيجاز والإجمال

والتفصيل . وقدّر الخبر فيه مقدماً لطول ذيل المبتدأ ، أو لئلا يفصل به بينه وبين مايفسره ،

أو ما هو كالمفسر له .

(الثانى) : أن خبره (تَجْرَى) - على طريقة قولك : صفة زيد أسمر - قيل : هو غير

مستقيم معنى ، لأنه يقتضى أن الأنهار فى صفة الجنة . وهى فيها ، لافى صفتها . مع تأنيث

الضمير المائد على المثل حملاً على المعنى .

(الثالث) : أن ثمة موصوفاً محذوفاً ، أى : مثل الجنة جنة تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ،

وقوله (وظلها) مبتدأ محذوف الخبر أى : كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٍ)

وَالَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » لأنه يحصل لهم به من المعاني والدلائل وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من تلك الكتب السالفة . قيل : عنى بهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، فإنهم يفرحون بما أنزل من القرآن ؛ لما يرون فيه من الشواهد على حقيقته التي لا يمتري فيها ، ومن المعارف والمزايا الباهرة التي لا تحصى كما قال تعالى ^(١) : (الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ) . « وَمِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى بقية أهل الكتاب والمشركون « مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ » وهو ما يخالف معتقدهم ، وجوز أن يراد (بالموصول) من يفرح به منهم لجرد تصديقه لما بين يديه وتعظيمه له وإن لم يؤمنوا . و (بـ) (الأحزاب) المشركون ، خاصة المنكرين لما فيه من التوحيد . ولذا أمر برد إنكارهم بقوله تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا » أى : لا إلى غيره « وَإِلَيْهِ مَآبٍ » أى : مرجى للجزاء ، لا إلى غيره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ)

« وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا » أى : حاكمًا بالحق ، أو حكمة عربية « وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

(١) [٢ / البقرة / ١٢١] .

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ « أَى لئن تابعتهم على دين، ماهو إلا أهواء بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج فلا ينصرك ناصر ولا يقيك واق . وهذا من باب الإلهاب والتهميج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين والتصلب وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدة الشكيمة بمكان - كذا فى (الكشاف) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » أى : مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم وهورد لقولهم : لو كان نبياً لكان من جنس الملائكة كما قالوا ^(١) : (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) ، وإعلام ، بأن ذلك سنة كثير من الرسل ، فما جاز فى حقهم لم لا يجوز فى حقه ؟ وقد قال تعالى له ^(٢) : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ) . « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » أى : ما صح له ولا استقام ولم يكن فى وسعه أن يأتى بما يقترح عليه ، إلا بإرادته تعالى فى وقته ، لأن الآيات معينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ، من غير يغير وتبدل وتقدم وتأخر . فأمرها منوط بمشيئته تعالى ، المبنية على الحكم والمصالح التى عليها بدور أمر الكائنات « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » أى لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب ، مقدّر معين أو مفروض فى ذلك الوقت على الخلق حسب تقضيه الحكمة . فالشرائع معينة عند الله بحسب الأوقات ، فى كل وقت يأتى ، بما هو صلاح ذلك الوقت ، رسول من عنده ، وكذا جميع الحوادث من الآيات

(١) [٢٥ / الفرقان / ٧] . (٢) [١٨ / الكهف / ١١٠] .

وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره .
وفيه ردّ لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب .

القول في قاويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ)

« بَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ » أى : ينسخ ما يشاء نسخه من الشرائع لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت « وَ يُثَبِّتُ » أى بدّله ما فيه المصلحة ، أو يبقيه على حاله غير منسوخ « وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » أى : أصله .

قال الرازى : العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أمّا له ، ومنه أم الرأس للدماغ وأم القرى لسكة . وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى . فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلاً لجميع الكتب . روى على بن أبى طلحة^(٢) عن ابن عباس فى الآية يقول : يبذل الله ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) يقول : وجعله ذلك عنده فى أم الكتاب الناسخ والمنسوخ . وما يبدل وما يثبت . كل ذلك فى كتاب . وعن قتادة : أن هذه الآية كقوله تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...) الآية .

تنبية :

تمسك جماعة بظاهر قوله تعالى : (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) فقالوا : إنها عامة فى كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ . قالوا : يحو الله من الرزق ويزيد فيه . وكذا القول فى الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر .

قال الرازى : هو مذهب عمر وابن مسعود . والقائلون بهذا القول كانوا يبدعون ويتضرعون إلى الله تعالى فى أن يجعلهم سعداء لا أشقياء . انتهى .

(١) انظر تفسير الطبرى ، الصفحة ١٦٩ من الجزء الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

أشار بذلك إلى آثار أخرجه ابن جرير^(١) عن عمر وابن مسعود . وليس في الصحيح شيء منها .

ظَهَرَ لِي * في دَمَرٍ في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٤ :

إنَّ ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما ، أن يدقق النظر فيه تدقيقاً زائداً ، فقد يكون سياق الآية لأمرٍ لا يحتمل غيره ، ويظنَّ ظاناً أنه يستدل بها في بحثٍ آخر ، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثيرٍ من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق .

خُذْ لَكَ مَثَلًا قَوْلَهُ تَعَالَى (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ السِّكِّاتِ) فكم ترى من يستدل بها على العلم الملقى ، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) وبوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعاً ولا مطمئناً . مع أنَّ هذه الآية ، لو تمعن فيها القارئ ، لعلم أنها في معنى غير ما يوهمون . وذلك أنهم كانوا يفترون على رسول الله ﷺ ، في أوائل البعثة ، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى . توهماً أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان . فأعلمهم الله تعالى أنَّ دور تلك الآيات الحسنية انقضى دورها وذهب عصرها . وقد استعبد البشر للتفتة إلى الآية العقلية ، وهي آية الاعتبار والتبصر . وإن تلك الآيات محيت كما محى عصرها . وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلي وأوضح وأدل على الدعوة . وهو قوله تعالى قبلها : (وَمَا كَانَ

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبري ، عن أثر عمر ، بالصفحة رقم ١٦٧ و١٦٨ من الجزء

الثالث عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وانظر كذلك ، عن أثر ابن مسعود ، بالصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثالث عشر

(طبعة الحلبي الثانية) .

* نقلت من دفتر للواردات والسوانح العلمية للمؤلف رحمه الله .

لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ
وَعِنْدَهُ أُمُّ السُّكُتَابِ) ...

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ)

« وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ » أى : من إزال العذاب في حياتك « أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ »
أى : قبل ذلك « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ » أى : تبليغ الوحي « وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » أى :
حسابهم وجزاؤهم . قال أبو حيان : جواب الشرط الأول (فذلك شافيك) والثاني (فلا لوم
عليك) وقوله تعالى (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...) الخ دليل عليها .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللَّهُ يَمْحُكُمُ
لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

« أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » أى : أرض الكفرة . ننقصها
عليهم بإظهار دين الإسلام في أطراف ممالكهم .

قال ابن عباس : أى : أو لم يروا أنا نفقح للرسول الأرض بعد الأرض ؛ يعنى أن انتقاص
أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات على أنه تعالى ينفذ وعده ، ونظيره
قوله تعالى ^(١) : (أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٤] .

وقوله ^(١) : (سَرُّهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ...) الآية .

قال الشهاب : هذا مرتبط بما قبله . يعني لم يؤخر عذابهم لإيهامهم ، بل لوقته المقدر ، أو ما ترى نقص ما في أيديهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام . ولم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم به تعظيماً له ، وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سِنَّةِ الغفلة . ومعنى (نَأْتِي الْأَرْضَ) يَأْتِيهَا أَمْرُنَا وَعَذَابُنَا . انتهى .

وقيل : ننقصها من أطرافها بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم . فهو لاء الكفرة كيف آمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع ؟ .

تنبية :

يذكرون - ها هنا - رواية عن ابن عباس ومجاهد : أن نقصها من أطرافها هو موت علماءها وفقهائها وأهل الخير منها . ويؤيد من يعتمد ذلك بأن الجوهرى حكى عن ثعلب : أن الأطراف يطلق على الأشراف جمع طَرَف وهو الرجل الكريم ، وشاهده قول الفرزدق ^(٢) :

وَأَسْأَلُ بِنَا وَبِكُمْ إِذَا وَرَدَتْ مَسْنَى
أَطْرَافُ كُلِّ قَبِيلَةٍ مَنْ يَتَّبِعُ

يريد أشراف كل قبيلة : فمعنى الآية : أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات : موت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ! وإذا كان هذا مشاهداً محسوساً ، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة ! ولا يخفأك أن هذا المعنى لا يذكركه السلف تفسيراً للآية على أنه المراد منها ، وإنما يذكرونه تهويلاً لخطب موت العلماء بسبب

(١) [٤١ / فصلت / ٥٣] .

(٢) فى الديوان (صفحة ٥٢٦) من يسمع عوضاً عن (من يتبع) .

ومطلع القصيدة :

بَيْنَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ مُجَاشِعٌ أَوْ نَهْشَلٌ تَلَمَّاحَتُكُمْ مَا تَصْنَعُ ؟

أنهم أركان الأرض وصلاحتها وكلها وعمرانها ، فوهم نقص لها وخراب منها . كما قال أحمد ابن غزال :

الأرض تحيي إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرفُ
كالأرض تحيي إذا ما النيثُ حلَّ بها وإن أُنِيَ عَادَ في أَكْثَرِهَا التَّلَفُ
ولذا قال الأزهرى كما في (لسان العرب) : أطراف الأرض نواحيها الواحد طرف ،
(ونقصها من أطرافها) أى نواحيها ناحية ناحية ، وعلى هذا من فسر (نقصها من أطرافها)
فتوح الأرضين . وأما من جعل (نقصها من أطرافها) موتَ علمائها فهو من غير هذا ، قال :
والتفسير على القول الأول .

وقوله تعالى « وَاللَّهُ يَحْكُمُ » أى : ما يشاء كما يشاء ، وقد حكم للإسلام بالجز
والإقبال ، وعلى الكفر بالذل والإدبار ، حسبما يشاهد من الخايل والآثار وفى الاتفات من
التكلم إلى الغيبة ، وبناء الحكم على الاسم الجليل ، من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة
وتحقيق مضمون الخبر ، بالإشارة إلى العلة ، ما لا يخفى . وهى جملة اعتراضية جىء بها
لتأكيد فحوى ما تقدمها .

وقوله تعالى : « لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ » اعتراض فى اعتراض . لبيان علو شأن حكمه
تعالى . وقيل : نصب على الحالية كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه - كما تقول : جاء زيد
لا عمامة على رأسه ، أى حاسراً . و (المعقب) من يكرّر على الشيء فيبطله ، وحقيقته من يعقبه
ويقفيه بالرد والإبطال . أفاده أبو السعود .

« وَهُوَ تَرِيغُ الْحِسَابِ » أى فعمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا
بالقتل والأسر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ)

« وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى مكر الكفار الذين خلوا ، إيقاع المكره بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء ، وقوله « فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا » إشارة إلى ضعف مكرهم وكيدهم لاضمحلاله وذهاب أثره ، وأنه مما لا يسوء ، وأن المكر المرهوب هو ما سيؤخذون به من إيقاع فنون النكال ، وهم نائمون على فرش الإمهال ، مما لا يخطر لهم على بال ، كما يرمى إليه قوله تعالى : « يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ » أى فيوفيها جزاءها المدة لها على ما كسبت من فنون المعاصي التى منها مكرهم ، من حيث لا يحتسبون « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » أى العاقبة الحميدة ، وعلى من تدور الدائرة ، وهذا كقوله تعالى (١) : (وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ...) الآية .

القول في تأويل تعالى :

[٤٣] (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ، قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ » فإنه أظهر على رسالتى ، من الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة . ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر . قيل : جعل هذا شهادة (وهو فعل والشهادة قول) على سبيل الاستعارة ، لأنه يبنى عن الشهادة بل هو أقوى . انتهى . ولا يخفى أن الشهادة أعم من القول والفعل . على

(١) [٢٧ / النمل / ٥٠ - ٥٢] .

أن المراد من تلك الحجج هي آيات القرآن والذكر الحكيم ، وهي كلامه تعالى ، وقد قال تعالى^(١) : (وَبَسِّتْنَاهُ نَكَّاحَةً هُوَ ، قُلْ إِي وَرَبِّي) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » أى ومن هو من علماء أهل الكتاب فإنهم يجدون صفة النبي ﷺ ونعمته في كتابهم من بشارات الأنبياء به . كما قال تعالى^(٢) : (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) وقال تعالى^(٣) : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَمْلِكَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) .

ويروى عن مجاهد أنه عني بـ (مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) عبد الله بن سلام . ونوفس بأن السورة مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . وأجاب البعض بأن بعض السور المسكية ربما وجد فيه مدنى وبالمعكس ، وكأن هذه الآية من ذلك .

وقد روى الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في (دلائل النبوة) : أن عبد الله بن سلام أسلم قبل الهجرة ، حيث رحل إلى مكة قبلها ، واستيقن نبوته صلوات الله عليه ، ثم آب إلى المدينة وكنتم إسلامه إلى أن كانت الهجرة . والله أعلم .

تم الجزء التاسع ، وبليه إن شاء الله الجزء العاشر وفيه تفسير :

(١٤) - سورة إبراهيم و ١٥ - سورة الحجر و ١٦ - سورة النحل و ١٧ - سورة الإسراء

—————

(١) [١٠ / يونس / ٥٣] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٥٧] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧] .